وظائف اللغة بين اللسانيات العامة واللسانية الاجتماعية

أ.دربال بلال

جامعة الحاج لخضر. باتنة. الجزائر

عند ظهور اللغويات المعاصرة ذات السمة البنيوية التي تركز على شكل اللغة[1] ظهر خطاب آخر لا يركز على شكل اللغة بل على وظائفها الاجتماعية. فما الفرق بين تعريف الوظيفة في اللسانيات العامة وتعريفها في اللسانيات الاجتماعية؟ وما هي هذه الوظائف من منظور كلا العلمين؟

إن تعاريف اللغة لا حصر لها عند العرب والغربيين؛ ولكن الذي أكدته الدراسات أن كل التعاريف اللسانية الحديثة قد جمعها حد «ابن جني» (322هـ-392هـ) وهي لا تختلف جوهرا عنه[2]. ففي خصائصه قال: «أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[3]. فأكد «ابن جني» صوتية اللغة ووظيفتها التواصلية في المجتمع، وهو ما تبعه فيه معظم علماء اللغة العربية كـ «القاضي عبد الجبار» (ت415هـ). و«الفيروزبادي» (ت729هـ) و«السيوطي» (ت911هـ)[4]. ويعرفها «ابن خلدون» (ت808هـ) بأنها «عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم»[5]. وهو ما يكشف عن الوظيفة التواصلية؛ إذ يعتبر اللغة نظاما للتواصل المقصود فهي سلوك اجتماعي، كما يقرر أنها ملكة راسخة واستعداد فطري، ويشير أيضا إلى تعددية النظم اللغوية وطبيعتها العرفية[6].

هذه هي اللغة كما أُجملت ثم فُصِّلت في اللسانيات العربية؛ فهي ذات طبيعة صوتية، وظيفة تواصلية مقصودة أساسا، آلتها اللسان، أودعها الله في الفطرة

وبالتدريب تستقر وتصبح ملَكة، هي متعددة، خاضعة للأوضاع الاجتماعية مؤثرة فيها متأثرة بها[7].

هذه المحاور وغيرها، هي التي لا يزال البحث الغربي ينهكها بحثا غالبا فيصيب تارة ويخطئ أخرى. ولذا لا تكاد تعثر على تعريف جامع مانع للغة في علم اللسانيات الاجتماعية، إذ ما زال مفهوم اللغة بين أخذ ورد وبين توسيع وتضييق نظرا لبعدها الاجتماعي.

I. وظائف اللغة من منظور اللسانيات العامة:

أيا ما كانت تعريفات اللغة فإن فكرة الوظيفة لا تؤدي دورا إيجابيا في اللسانيات السوسيرية، إذ ليس من وظائف اللغة ومهامها أن تمثل فكرة مستقلة عن اللغة؛ لأن اللسانيات السوسيرية تدرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها. لذا فإن بعض خلفاء «سوسير» يؤكدون أن دراسة اللغة هي في البداية بحث عن الوظائف التي تؤديها في التواصل، وهذا يعني أن الاتجاه الوظيفي لن يسمح أبدا بظهور مسلمة «سوسير» التي تؤكد أن في اللغة لا يوجد إلا الاختلاف[8].

لذا فالوظيفة الاتصالية تقف في مقدمة الوظائف للغة. فعند «فيجوتسكي» « **Vygotsky**» أن ثمة وظيفة تواصلية اجتماعية للغة حتى في الكلام المتمركز حول الذات (حديث النفس)، وأن الراشد يفكر في المجتمع وفي الآخرين حتى ولو كان وحيداً. وعند «جون ديوي» أن اللغة ليست تعبيراً عن المشاعر والأفكار وإنما هي بالدرجة الأولى وسيلة اتصال بين أفراد جماعة[9].

ظهرت "نظرية الاتصال" "**Communicative Theory**" في 1948 ومفادها أن عملية الاتصال تتطلب ستة عناصر (المرسل والمرسل إليه والرسالة والقناة والمرجع والشفرة). ومن هذه النظرية استلهم «رومان جاكبسون» وظائف اللغة خلال دورة الكلام، فنصب على كل عنصر وظيفة لغوية كما يلي[10]:

1. المرسل emitter: وتتعلق به الوظيفة **التعبيرية (الانفعالية)** expressive function، فمن خلالها يظهر المرسل مشاعره وآراءه.

2. المرسل إليه receptor: وتتعلق به الوظيفة **التأثيرية (الإفهامية النزوعية، الندائية)** conative function، فمن خلالها يسعى المرسل إلى التأثير على المرسل إليه وجلب انتباهه ويظهر في النداء مثلا.

3. الرسالة message: وتتعلق بها الوظيفة **الشعرية (الجمالية)** poetic function. وهو ما ركز عليه الشكلانيون الروس. فهم يقيِّمون العمل الأدبي من خلال النص لا من خلال صاحبه. وسميت الوظيفة الشعرية لأن جاكبسون انصبت دراساته على الشعر أساسا؛ وهذا ليس استبعادا لباقي الفنون.

4. المرجع referent: وتتعلق به الوظيفة **المرجعية (الرمزية)** referential function، وهي تمثل الظروف التي تحيط بالرسالة من ظروف سياسية واجتماعية وسياق الزمان والمكان (سياق الموقف عند فيرث)

5. القناة Communicative channel: وتتعلق بها الوظيفة **الانتباهية** (وظيفة إقامة الاتصال) phatic function، وهي الروابط التي تسهل انتقال الرسالة؛ كآداب التحية وكلمة "آلو" فهدفها إقامة الاتصال.

6. الشفرة code: وتتعلق بها الوظيفة **ما فوق لغوية (ما فوق لسانية الوظيفة الواصفة، الوظيفة ما وراء لغوية)** metalinguistic، وهي النظام الرمزي المشترك بين المرسل والمرسل إليه، ومثالها عمل المعجمي في شرح اللغة باللغة فهي لغة شارحة بالتركيز على المفردة (الشفرة) أو الأصوات.. ففحواها شرح اللغة باللغة، لأن من وظائف اللغة شرح نفسها خلافا لغيرها.

لقد أخذ البحث في وظائف اللغة من الوجهة اللسانية يتطور فهناك من اللسانيين من صنف وظائف اللغة بشكل آخر حسب المواقف التي يحتاج الفرد إلى استعمال اللغة للاتصال فيها وهي مواقف كثيرة، يحصرها «هاليداي» «Halliday» في سبع وظائف أساسية هي[11]:

1. الوظيفة **النفعية:** Instrumental function، ويقصد بها استخدام اللغة **للحصول على الأشياء المادية** مثل: الطعام، والشراب. ويلخصها «هاليداي» في عبارة "أنا أريد" I want.

2. الوظيفة **التنظيمية:** Regulatory function، ويقصد بها استخدام اللغة من أجل إصدار **أوامر للآخرين، وتوجيه سلوكهم.** ويلخصها هاليداي في عبارة "افعل كما أطلب منك" Do as I tell you.

3. الوظيفة **التفاعلية:** Interactional function، ويقصد بها استخدام اللغة من أجل تبادل **المشاعر، والأفكار بين الفرد والآخرين.** ويلخصها هاليداي في عبارة "أنا وأنت" Me and you.

4. الوظيفة **الشخصية:** Personal function، ويقصد بها استخدام اللغة من أجل أن **يعبر الفرد عن مشاعره، وأفكاره.** ويلخصها هاليداي في عبارة "إنني قادم" I come Here.

5. الوظيفة **الاستكشافية:** Heuristic function، ويقصد بها استخدام اللغة من أجل **الاستفسار عن أسباب الظواهر، والرغبة في التعلم** منها. ويلخصها هاليداي في عبارة "أخبرني عن السبب" Tell me why.

6. الوظيفة **التخيلية:** Imaginative function، ويقصد بها استخدام اللغة من أجل التعبير عن **تخيلات، وتصورات من إبداع الفرد،** وإن لم تتطابق مع الواقع. ويلخصها هاليداي في عبارة "دعنا نتظاهر أو ندعي" Let us Pretend.

7. الوظيفة **البيانية:** Representational function، ويقصد بها استخدام اللغة من أجل **تمثل الأفكار والمعلومات، وتوصيلها للآخرين.** ويلخصها هاليداي في عبارة "لدي شيء أريد إبلاغك به" I have got some thing to tell you.

8. وظيفة **التلاعب باللغة:** Play function، ويقصد بها اللعب باللغة، وبناء كلمات منها حتى ولو كانت بلا معنى، ومحاولة استغلال كل إمكانات النظام اللغوي. وتلخصها 'وليجا ريفرز' في عبارة "Billy Pilly".

9. الوظيفة **الشعائرية:** Ritual function، ويقصد بها استخدام اللغة **لتحديد شخصية الجماعة، والتعبير عن السلوكيات فيها.** ويلخصها هاليداي في عبارة "كيف حالك" ?How do you do.

II. تعريف الوظائف اللغوية من منظور اللسانيات الاجتماعية:

وظائف اللغة حسب تعريف «قورمان» «Gorman» هي «القرارات الصادرة من سلطات مختصة بقصد المحافظة على لغة أو توسيع مجالات الاستعمال للغة ما في مجتمع معين»[12]. وفي الحقيقة **تحديد الوظيفة اللغوية لا يكون بإسناد «منزلة» «Statu» بعينها لكل لغة؛** بل لا بد من بُعد هام جادا؛ وهو تصورات الناطقين بتلك اللغة أو اللغات ومواقفهم منها[13]. لذا **تحديد الوظائف اللغوية ليس حكرا على الدستور،** لأن الوظائف التي تقوم بها اللغة داخل المجتمع تتغير تلقائيا ودون تخطيط في أغلب الأحيان، وذلك لأن اللغة ذاتها تتغير بمرور الزمن. ومثال ذلك تغير اللغة الأم بتبني اللغة العربية في كثير من أجزاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بعد الفتح الإسلامي، حيث أصبحت للغة العربية وظيفة اللغة الأم واللغة الرسمية للدولة[14]. فلا غرابة في وجود وظائف غير التي يحددها الدستور؛ كوظيفة التثقيف أو وظيفة الانسجام الاجتماعي أو وظيفة الاندماج النطاقي.. وهي وظائف سأقف على تعاريفها في ثنايا هذا المقال.

من حيث المبدأ يمكن- نظريا- عند رسم السياسة اللغوية التركيز على أي وظيفة تواصلية، أما عمليا فنجد السلطة والنخبة المضادة تستهدف وظائف أخرى للغة تمكنها من توسيع سلطتها أو الحفاظ عليها[15]. فما هي وظائف اللغة هذه؟

III. وظائف اللغة من منظور اللسانيات الاجتماعية:

وفقا لتعريف «قورمان» القاضي بأن الوظائف يحددها الدستور؛ فإن «ستيوارت» «Stewart» حدد وظائف اللغة من منظور اللسانيات الاجتماعية فيما يلي:

1- الوظيفة الرسمية[16]: ويرمز لها بالرمز (O) من الأبجدية الانجليزية. وهي تعني أن اللغة الرسمية هي معتمدة لأداء كافة الأنشطة الممثلة للدولة، سياسيا وثقافيا. يحددها الدستور. ولها ثلاثة أنواع (مظاهر):

أ- اللغة **الدستورية** الرسمية (القانونية) وهي التي يصفها الدستور بذلك.

ب- اللغة **العملية** الرسمية (الإدارية) والتي بها يتم التعامل الإداري وعلى لافتات الطرقات وعلى العملة وطوابع البريد.

جـ- اللغة **الرمزية** الرسمية التي تستعملها الدولة كرمز لها ولقوميتها.

ففي فلسطين المحتلة تَعتبر إسرائيل اللغة العبرية هي اللغة الرسمية بالمفاهيم الثلاثة، أما العربية فيها فهي اللغة الرسمية من الناحيتين العملية والقانونية، أما الإنجليزية فهي لغة رسمية من الناحية العملية فقط.

لقد ثبت قبل فترة الاستعمار، أن اللغة العربية كانت هي لغة التعليم ولغة الجمهور في عهد الخلافة العثمانية، في حين كانت التركية هي اللغة الحكومية الرسمية، أما الفرنسية فقد كانت لغة الدبلوماسية، والنخبة الجزائرية أيضا[17]. أما التبادل التجاري فشاعت فيه لغة الخليط مثل لغة فرانكا• كما يذكر أبو القاسم سعد الله[18].

فاللغة **العربية قبل الاحتلال لم تكن لغة رسمية دستوريا** لأن الدستور العثماني (القانون) لا يصفها بذلك بل لم يرد ذكر اللغة العربية إطلاقا في الدستور، لأن هذه الوظيفة كانت مسندة للتركية تناغما مع سياسة التتريك التي تبنتها الخلافة العثمانية وبموجب ضم الجزائر إلى الخلافة[19].

و لكن رغم ذلك ظلت العربية لغة دستورية عملية ورمزية لمعظم الأقطار الإسلامية إذ «قد أوجدت دولة الخلافة العثمانية وحدة بين الولايات العربية التي دخلت في سيادتها، فاحتفظت كلٌّ منها بمقوماتها الأساسية؛ مثل: الدين الإسلامي واللغة العربية، والثقافة العربية الإسلامية، والعادات والتقاليد الموروثة عبر العصور..»[20]، لذا كان استعمال العربية رمزا لوحدة الهوية بين كل المسلمين ولكن

في ذات الوقت كان دليلا على كون المواطن الذي يستعمل العربية ليس من الرعية التركية فهو بتعبير أدق لا يحوز على حقوق المواطنة كما يؤكد ذلك الدستور.

و في الجزائر باعتبارها إيالة (ولاية) عثمانية كانت تسود فيها تعالم الدستور العثماني ولكن رغم ذلك «اللّغة التركية كانت قليلة الاستعمال ومحصورة الانتشار ولا نكاد نجدها خارج الجزائر العاصمة، حتى بين الموظّفين العثمانيين في الأقاليم لعلاقتهم المباشرة مع المواطنين. أمّا في العاصمة فقد كانت اللّغة التركية مستعملة في مستويات إدارية كالمجلس الرّسمي (الديوان)، الذي كانت تسجّل فيه المحاضر بالعربية والتركية معا على أيدي الكتبة أو الخوجات، وكانت التّرجمة هي وسيلة التبليغ بين الحاضرين إذا لزم الأمر. كما أنّ اللّغة التركية كانت مستعملة في ثكنات الجيش الإنكشاري بالخصوص، لأنه جيش خليط ومن مواليد الأناضول في معظمه. والمعروف أن الحروف العربية هي التي كانت مستعملة سواء تعلق الأمر باللهجات الدارجة أو باللغة التركية»[21]. وهذا ما يؤكد أن للعربية قبل الاحتلال وظيفة رسمية عملية ورمزية رغم غياب وظيفتها الرسمية الدستورية.

لكن بعد الاحتلال الفرنسي أسندت الوظيفة الرسمية الدستورية للغة الفرنسية؛ إذ يصفها الدستور الاحتلال بذلك دون العربية، بل وحاولت فرنسا أن تسند للفرنسية حتى الوظيفة الرسمية العملية والرمزية من خلال **قرارات وتعليمات فرض التعامل بالفرنسية وإقصاء العربية**. كان أهمها[22] :

1- «**قرار صدر عام 1848** حول اللغة ورد فيه: «إن لغتنا هي اللغة الحاكمة إن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته... بهذه اللغة، وبهذه اللغة وحدها، يجب أن تكتب جميع العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا... وأن أهم ما ينبغي أن نعتني به هو **السعي لجعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم، وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين**»..

2- تعليمة موجهة إلى حاكم الجزائر غداة الاحتلال جاء فيها: «إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هنا لغة قومية والعمل الجبار الذي يتوجب علينا إنجازه **هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتدريج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية» ..**

3- في عام 1904 صدر قانون يحرم على الجزائريين أن يفتحوا مدرسة عربية أو كتابا لتعلم القرآن ما لم يحصلوا على ترخيص..

ثم جاء **قرار «شودان»** «Chaudain» وزير داخلية فرنسا في عام 1938 ليؤكد تطبيق القانون السابق الخاص بمنع فتح مدرسة لتعليم العربية..»

فمن خلال تتبع الوضع القانوني للغة العربية قبل الاحتلال وبعده نجد أن في كلا العهدين لا يعكس وضع اللغة الدستوري حالها الميداني في حياة الناس والمجتمع؛ فهي لم تخضع للدسترة رغم كونها لغةً أمًا لمعظم السكان، لذا **بقيت وظيفة اللغة العربية الرسمية محصورة في الوظيفة الرسمية العملية، وإن لم يحددها الدستور أيضا لا قبل الاحتلال ولا بعده•**. فهي بقيت لغة التعامل اليومي (في البيت والحقل والسوق وتسميات الأشخاص والشوارع والمدن..) ولغة التعليم وحتى الإدارة ولكن بشكل محدود جدا، فيما لا يمكن للفرنسية ولا التركية القيام به كتوثيق بعض من العقود والفتاوى وتعليم القرآن.. ورغم كل هذا الإجحاف التي لاقته خاصة من غريمتها الفرنسية؛ إلا أنها **نجحت في التعبير عن الوظيفة الرسمية الرمزية للجزائريين** – رغم عدم دسترتها لا قبل ولا بعد الاحتلال– لأن الجزائر كانت منذ الفتوحات الإسلامية تعتز بالانتماء القومي العربي.

فاللغة العربية بهذا الواقع لم تكن لغة رسمية دستورية (بنص الدستور) وكانت لغة رسمية عملية ورمزية بواقع الميدان، وإن لم يحدد الدستور ذلك ولم يعلن عليه أيضا، وهذا ينسحب على فترة ما قبل الاحتلال أما بعد الاحتلال فقد حاول الاحتلال أن يسحب من العربية الوظيفة الرسمية بمفاهيمها الثلاث (الدستورية والعملية والرمزية)، «لأن اللغة الدستورية أو القانونية ترمز إلى

الذاكرة المشتركة وإلى تطلعات المجتمع (أو الأغلبية فيه) وطموحاتهم وإلى ماضيهم ومستقبلهم. فعندما ينظر المجتمع إلى اللغة بأنها رمز عظمته وقوته فإن تحديد تلك اللغة بأنها اللغة الرسمية يعزز شرعية سلطة الحكومة»[23]. ولعل هذا ما عجزت عن تحقيقه اللغة التركية وخططت الفرنسية للوصول إليه.

2- الوظيفة الإقليمية[24]: أي وظيفة الاستعمال الإقليمي وفي حدود الإقليم يرمز لها بالرمز(P) من الأبجدية الإنجليزية. هي لغة تؤدي دور اللغة الرسمية في حدود جغرافية محددة، فلا وظيفة قومية لها. ويمكن أن تتسحب عليها الأنواع الثلاثة للغة الرسمية (الإقليمية الدستورية والعملية والرمزية).

قبل الاحتلال لم يخضع تقسيم الجزائر إلى أقاليم وعمالات على أساس لغوي. لذا لم تكن هذه الوظيفة اللغوية مطروحة على الساحة الجزائرية، لكن بدخول الاستدمار حاول أن يبقي الوضع على حاله مع تلوين هذه الأقاليم والعمالات باللون اللغوي أيضا؛ فمثلا عمد إلى تكريس المنطق اللغوي في مجموع بلاد زواوة وسماها القبائل[25]، ومثلها منطقة الأوراس. والتوارق.. وقد وجدنا من المبشرين من يكرس ذلك؛ فأحد القساوسة ألقى السلام بالفرنسية على طفل أمازيغي في منطقة القبائل، فرد عليه السلام بالعربية، فقال له القس: "لا تسلم علي بلغة ليست لغتك بل سلِّم علي بالقبائلية"[26].

3- الاستعمال اللغوي المتداول على نطاق أوسع[27]: يرمز له بالرمز(W) من الأبجدية الإنجليزية. وهي تعني أن اللغة تستعمل للتفاهم عبر الحدود اللغوية بين الأقليات في الأمة الواحدة، ولا يمكن أن تؤدي الوظيفة العمودية (بين الحاكم والرعية) لا الرسمية ولا الإقليمية، لأنها للتواصل الأفقي (بين أفراد الرعية). ومثالها لغة «ماندينجو»• «Mandingo» التي استخدمتها فرنسا الاستعمارية للتواصل مع السكان المحليين.

ففي فترة الاستعمار سيطرت عليه اللغة العربية بمظهرها العامي، والذي لا يمثل الشكل الرسمي للغة العربية. فهي تستعمل للتواصل الأفقي بين لأفراد الرعية

ولا تؤدي وظيفة التواصل العمودي في المقامات الإجلالية مثل اللغة العربية في مظهرها فصيح. وفي الحقيقة تمايز الوظائف اللغوية الاجتماعية للغات في الجزائر، جعل اللغة العربية الفصحى تنفرد بوظيفة اللغة الوطنية، في مقابل ذلك انفردت العاميات والأمازيغية بوظيفة التواصل العادي.

فالتباين الوظيفي بين الفصحى وعامياتها ليس غريبا؛ لأن اللغة الفصحى في أية أمة تلعب دور الملكة التي لا تقبل التعدد، أما اللهجات واللغات الشعبية المحلية فهي تلعب دور الخادمات المساعدة للملكة في الشؤون العادية اليومية غير الرسمية. فإذا كان من الممكن عند الضرورة، أن تقوم الفصحى بأعمال الخادمات، فلا يمكن أن يحدث العكس..[28].

4- الاستعمال الدولي[29]: يرمز له بالرمز (i) في الأبجدية الإنجليزية. وتعني هذه الوظيفة أن للغة استعمالا في الأغراض الدبلوماسية والتجارة الدولية والسياحة.. لذا تُراعَى مثل هذه اللغات في السياسة التعليمية للدول، باختيار أوسع اللغات انتشارا لتعليمها في المدارس. ومثالها اللغة الإنجليزية في إسرائيل؛ إذ هي لغة تعامل تجاري مع غير إسرائيليين، ومع السُّواح ومواطني الدول الأخرى..

أسندت للغة الفرنسية في فترة الاحتلال وخاصة في التعامل مع غير العالم العربي. فقد كانت اللغة الفرنسية هي لغة الدبلوماسية والتجارة الدولية والسياحة وغيرها.

ولكن رغم ذلك، ظلت اللغة العربية تتميز بوظيفة الاستعمال الدولي، لأن اللغة العربية الفصحى تتميز بكونها جامعة للهجاتها داخل الدولة وخارجها، بل لا يمكن التعرف على بيئة المتكلم إن تكلم العربية الفصحى. لذا فهي تؤدي وظيفة الاندماج الاجتماعي، إذ تدل على الانتماء القومي والانتماء الوطني[30].

5- الاستعمال اللغوي في العاصمة وما حولها[31]: رمزه بالأبجدية الانجليزية (C). ولها مهمة التواصل في حدود عاصمة الدولة وما حولها، خاصة إذا كانت هذه العاصمة السياسية هي العاصمة الاقتصادية ولها نفوذ اجتماعي كبير، مما

يجعل اللغة أو لغات العاصمة تنتشر في أطراف الدولة. ولا تشكل هذه اللغة ولا وظيفتها محور اهتمام السياسات اللغوية.

يقول «عثمان سعدي» عن لغة العاصميين إبان فترة الاستعمار: «المعروف أن لهجة العاصمة في أي قطر تعتبر أرقى من لهجات المناطق الأخرى وقد **شذت مدينة الجزائر التي تعتبر لهجتها أفقر لهجات الجزائر** وذلك بسبب معاناتها من الوجود التركي طيلة ثلاثة قرون، ومن الاستيطان الفرنسي والأوربي طيلة قرن وثلث قرن»[32]. فلم تكن للعاصمة لغة خاصة للتواصل في حدود العاصمة وما حولها، رغم كون الجزائر عاصمة سياسية واقتصادية للدولة ولها نفوذ اجتماعي كبير.

6- الاستعمال الخاص بالمجموعات[33]: يرمز له بالرمز(G) من الأبجدية الإنجليزية. حيث توكل للغة مهمة التفاهم الطبيعية بين أفراد مجموعة عرقية وثقافية واحدة؛ مثل القبيلة أو مجموعة مهاجرين مستقرين. وقد ترتقي هذه الوظيفة - بشكل غير رسمي- لتشكل معيار الانتساب والعضوية للمجموعة، فتصبح هذه اللغة عامل تحديد للهوية. ويمكن أن تكون هذه اللغة محور رسم سياسة لغوية، كما حدث مع محاولات إسرائيل جعل العبرية لغة التواصل بين كل الإسرائيليين ومحاولة الايرلنديين جعل الايرلندية لغة التفاهم بين الشعب الايرلندي. وهي وظيفة تضطلع بها العاميات العربية الجزائرية والأمازيغية إبان فترة الاستعمار. قد تتغير وظيفة اللغة نتيجة عوامل نفسية عند الناطقين بها، كالخوف من السخرية أو إخفاء الانتماء القومي..[34]. وهذا ما ظهر جليا عند جماعة النخبة•، في اعتمادها اللغة الفرنسية في تواصلها اليومي.

ولعل من دوافع مثل هذا السلوك دلالات السخرية والدونية التي تربطها فرنسا باللغات الأخرى. يقول «كالفي»: «ومن هنا فإن كلمة تدل عل الجغرافيا ابتداءً «..» تبدأ شيئا فشيئا في أخذ معنى اجتماعي تحقيري، فيجنح التمييز الجغرافي إلى السخرية والتحقير، معتمدا في التحقير على اللغة الحاصرة [هي اللغة المحصورة

بين عدد محدود من الناس] للآخر. إن هذا هو الأساس التاريخي لسخرية الفرنسيين مما يسمونه حكايات كورسيكية أو حكايات بلجيكية»[35]. ومن هذه الإشاعات التي حاصرت بها فرنسا استعمال الجزائريين للغة العربية الفصيحة أو العامية أو حتى الأمازيغية؛ الاستهانة بكل ما هو عربي، فأخذ المعمرون **يحقرون من شأن ما هو جزائري وعربي، في القول والعمل والتقاليد والأزياء والمحيط**، فصوروا كل ما هو عربي ككائن قبيح، ناقص، غير صالح للتطور ومن ذلك **قولهم**: «**الطبع العربي**»، و«**العمل العربي**»، و«**الفوربي العربي**»، و«**البقرة العربية**»، و«**التين العربي** أو البربري»..[36]. و**ما هذا التحقير إلا تكريسا لروح الانهزامية، وعملا على إنهاك الجزائري نفسيا** بهذه الملفوظات المتفجرة، التي تقتل كل مبادرة نحو عمل لغوي راق في إطار قومي، وتسمم كل أجواء الجغرافيا اللغوية الجزائرية.

7- استعمال اللغة أداة للتعليم[37]: ويرمز لها باللغة الإنجليزية بالرمز(E). وتعني جعل اللغة أداة للتدريس في المؤسسات التعليمية على المستوى الإقليمي والقومي. ولعل هذه الوظيفة من أهم المحاور التي تثور حولها نقاشات واسعة عند رسم السياسات اللغوية، لأن رسمها يشترك فيه السياسيون ورجال الأسرة التعليمية دون أن نستثني الضغوط التي يمارسها أصحاب المصالح والنفوذ السياسي والاقتصادي في اختيار اللغات التي تكون وسيلة للتعليم. يقول «كوبر»: «من المعتاد أن يفرض المستعمر لغته على النظام التعليمي للمستعمَر. ويمكن حدوث مثل هذا الفرض التعسفي حتى في المستعمرات الأحادية اللغة. كما حدث في إيرلندا وتونس. وعلى الرغم من أن السياسة التي تم اتباعها كان لها تبريرا واضحا في حالة المستعمرات المتعددة اللغات كما في الهند والكمرون»[38]. ولكن **فرنسا لم تفرض لغتها فقط بل فرضت حتى ثقافتها**. كتب «جورج هاردي» -أحد الفرنسيين- كلمة يقول فيها: «إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء وأخلص في خدماتهم لمشاريعنا هو **أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة**، وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك

يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا. **فالمقصود إذن باختصار هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد»**[39].

وعادة ما يتم تحديد لغة التدريس بقرار يشترك فيه السياسيون ورجال الأسرة التعليمية؛ إلا أن تحديد هذه الخيارات، كان من مهمة رجال السياسة الفرنسية وبعض من الخبراء الذين قدموا تقاريرهم حول الأوضاع اللغوية وغير اللغوية للجزائر حتى قبل احتلالها. وهذا يعني عدم إشراك الأسرة التعليمية الجزائرية في تحديد لغة التعليم ولا اللغات التي سيشملها التعليم.

8- استعمال اللغة مقررا دراسيا(تعلم لغة ما)[40]: ويرمز له بالرمز(S) في الأبجدية الإنجليزية. وتعني تدريس اللغات التي ليست لغات رسمية ولا إقليمية ويتم تدريسها في مراحل عليا كمرحلة الثانوي والجامعي، على اعتبار أن اللغة الثانية أدرجت للتدريس في المراحل الابتدائية. وقد يخضع اختيار اللغات موضوعا للتدريس لضغوط سياسية واقتصادية وتجارية.. وقد تحركت فعلا جهود فرنسا في هذا الاتجاه وعمدت إلى جعل الدارجة مقررا دراسيا للفرنسيين خاصة في عهد «بيجو»، وأسسوا معهد «الكوليج العربي» في باريس سنة1839، يكون «مشتلة» للمترجمين المقدر لهم العمل في الجزائر. وقد وصلت نسبة معرفة الكولون بالعربية 20 % من الرجال و10 % من النساء يستطيعون التحدث قليلا بالعربية ولكن لا يكتب بها إلا 1.7 % من الرجال و0.5 %من النساء[41].

9- استعمال اللغة لأغراض أدبية[42]: وتأخذ رمز(L) في الأبجدية الإنجليزية. وهي تعني استخدام اللغة للكتابات الأدبية والأكاديمية. لقد عملت الإدارة الفرنسية على تكريس لغتها لغة للأدب في كل المدارس التي أنشأتها، وهذا ليس غريبا على إدارة تسعى لإفراغ الأمة الجزائرية من هويتها وإعطائها لغة وهوية جديدتين. لكن الغريب هو التناقض في تعاملها مع التراث الذي وجدته قائما متأصلا في الجزائر عند احتلالها؛ فمن جهة حاولت طمس التراث الذي تحمله اللغة العربية، وهو تراث واسع الانتشار، ومن جهة أخرى حاولت إحياء تراث اللغة الأمازيغية محدود

الانتشار، وهذا هو الضحك على الذقون بحق! لأن جهود فرنسا لإحياء التراث الأمازيغي، ما هي إلا قدْح في خيارات أمازيغية قديمة، عندما اعتنق الأمازيغ الإسلام وحملوا تراثه ولغته، وما يزال أحفاد الأمازيغ أوفياء لخيارات الأجداد. كما أن من السخرية تعريف الأمازيغيين بتراثهم وهم أعرف الناس به! لذا ليس غريبا أن يعتبر الأمازيغيون الظهير البربري• قُفَّازا في يد فرنسا[43].

10-استعمال اللغة لأغراض دينية[44]: رمزه بالأبجدية الإنجليزية هو (R)•. ويقصد بهذه الوظيفة استعمال اللغة عند أداء الطقوس الدينية والفرائض التعبدية. ويلحق بها أيضا استعمال اللغة في التعليم الديني وتصحيح العقائد والوعظ والإرشاد وقراءة النصوص المقدسة. وهي وظيفة العربية للجزائريين واللغة الفرنسية للفرنسيين، سواء عند قراءة النصوص المقدسة والشعائر التعبدية أو عند التعليم الديني وتصحيح العقائد والوعظ.

ولأهمية هذه الوظيفة اتخذت كل ديانة موقفا حاسما من لغة الدين وكتابتها، فإذا كانت اليهودية والإسلام لا تقبلان إلا لغة الكتاب المقدس، فإن المسيحية تتساهل وتجيز قراءة النص المقدس بلغة القارئ. **وإذا كان صحيحا أن الأديان مدينة للكتابة، فمن صحيح أيضا أن الكتابة مدينة للديانات. لأن الديانات السماوية ديانات كتب وأصحابها يسمون أهل الكتاب**[45].

هناك **وظائف أخرى للغة تستهدفها السياسات اللغوية عند رسمها، منها تحديد لغة وسائل الإعلام الجماهيري، ولغة ميادين العمل**[46]. أي تحديد جدوى استعمال لغة معينة في وسائل الإعلام ومدى تكريسها للوحدة الوطنية للدول، وتلبية حاجات الأقليات العرقية، فضلا عن مدى وفرة الأطقم والبرامج بهذه اللغة، والجدوى من الإنتاج الإذاعي لبرامج بهذه اللغة. أما وظائف اللغة التي تستهدفها السياسات اللغوية في ميادين العمل، فتعني تحديد لغة ميادين العمل وإحداث نوع من التكيف اللغوي وفقا لما تتطلبه فرص العمل المتاحة.

الهوامش:

1 ينظر- DeSaussure : cours de linguistique générale, édition Talantikit, Bijaïa , Algérie, 2002 .p351. يقول دي سوسير: "إن هدف اللسانيات الوحيد والحقيقي إنما هو اللغة منظورا إليها في ذاتها ومن أجل ذاتها".

2 – ينظر أحمد شامية: في اللغة، دار البلاغ للنشر، ط 1، 2002، ص11.

3- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، د ط، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية 1957، ج 1، ص33.

4 – ينظر نعمان بوقرة: اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، الأردن ط1، 2009، ص3.

5 – عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت، ص603.

6 – ينظر نعمان بوقرة: اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، ص4.

7- محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، الكويت، وكالة المطبوعات، 1973، ص 10-9.

8 - ينظر أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر العياشي، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص49-53.

9 - محمود أحمد السيد: شؤون لغوية، دمشق، دار الفكر، 1989، ص 110.

10- ينظر أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ط3، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية الجزائر،2007، ص148-149. وينظر خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات العامة ط2، دار القصبة، الجزائر،2006، ص30-31. وينظر نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، ص 96-98.

11 -.Rivers, W.: Communicating Naturally in a Second Language, Cambridge, Cambridge University Press, 1983, p50.

12 – روبرت ل كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ترجمة خليفة أبو بكر الأسود إصدار مجلس الثقافة العام، ليبيا، د ط، 2006، ص 72.

13 – ينظر خولة طالب الإبراهيمي: الجزائريون والمسألة اللغوية: ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، د ط، 2007، ص 10.

14 – ينظر كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ص185.

15 – ينظر المرجع نفسه، ص 219.

16 – ينظر المرجع نفسه، ص 186-187.

17 – ينظر أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ج1، ص246–247.

• لغة الفرانكا: لغة تقريبية نشأت في19 ق في البحر الأبيض المتوسط، بنيتها النحوية إيطالية ومفرداتها خليط من دول المتوسط. سميت بـــ"Lingua frenca". فهي بسيطة في نحوها ومحدودة في معجمها، وظيفتها تواصلية بين تجار المتوسط، ليست لغة أمًا للناطقين بها. ينظر: موقع ويكيبيديا:http://fr.wikipedia.org/wiki/Lingua_franca

18 – ينظر أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث(بداية الاحتلال)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982، ص159.

19– سليم فارس الشدياق، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، ط1، مطبعة الجوائب،1295هـــ ج6، ص(5 ــ 27). جاء القانون الأساسي العثماني (الذي أصبح هو الدستور بعد تعطيل الدستور الأول وتعديلاته إذ ترجع بداية الحياة الدستورية في الدولة العثمانية إلى عام 1808م، وهو العام الذي تبوأ فيه السلطان محمود الثاني عرش السلطنة):

المادة الأولى : إنّ الدولة العثمانية تحتوي على الممالك والقطع الحاضرة وعلى الايالات الممتازة وجميعها جسم واحد لا يمكن تفريقه أو تجزيئه بوقت من الأوقات أو بسبب من الأسباب.

المادة الثالثة : إن السلطة السنية العثمانية الحائزة على الخلافة الكبرى الإسلامية تكون لأكبر أولاد سلالة آل عثمان بحسب الأصول القديمة.

المادة الثامنة عشرة :يشترط في مطلب استخدام التبعة العثمانية في خدمات الدولة أن يعرفوا **<u>اللسان التركي الذي هو لسان الدولة الرسمي</u>**.

المادة السابعة والخمسون :مذاكرات الهيئتين [المجلس العمومي يحتوي على هيئتين إحداهما تدعى هيئة الأعيان والثانية هيئة المبعوثان] تكون باللغة التركية واللوائح المقتضى إجراء المذاكرة عليها تطبع صورها وتتوزع على الأعضاء قبل يوم المذاكرة

المادة الثامنة والستون : إنّ الذين لا يجوز انتخابهم لهيئة المبعوثان هم: .. الشرط ثالثاً: الذين لا يعرفون اللغة التركية. فهؤلاء لا يمكن أن يكونوا أعضاء في هيئة المبعوثان. ويشترط في الانتخابات التي تجرى بعد أربع سنين على من يلزم أن يكون مبعوثاً أن يقرأ اللغة التركية وأن يكتب بها أيضاً على قدر الإمكان..

20 – إسماعيل أحمد ياغيفي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط2، مكتبة عبيكان جدة، السعودية، 1998، ص239

21– الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية برئاسة 'عثمان سعدي'. موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia. org/wiki/الجمعية_الجزائرية_للدفاع_عن_اللغة_العربية.

22 – "محنة اللغة العربية في فترة الاحتلال الفرنسي ومعاناتها بعد الاستقلال": عبد القادر فضيل اللغة العربية، عدد ممتاز، ص257. وينظر للاستزادة " محاربة الاحتلال للغة والثقافة العربية وموقف الحركة الوطنية": محمد لحسن زغيدي، اللغة العربية، عدد ممتاز، ص386– 387. نقلا عن سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر: عبد القادر حلوش، ص198–199–143–144–150–159–163.

فلا إشارة في البنود الدستور العثماني والفرنسي إلى دستورية اللغة العربية خلافا للتركية والفرنسية. •

23 – كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ص189.

24 – ينظر المرجع نفسه، ص192.

25– عمدت فرنسا إلى تغيير الاسم الأصلي للقبائل من 'زواوة' إلى الاسم اخترعته الإدارة الاستعمارية وهو 'القبائل' 'Kabyles'. ينظر رابح لونيسي: دعاة البربرية في مواجهة السلطة، دار المعرفة، الجزائر، د ط، د ت ، ص5.

26– يسلي مقران: الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل 1920–1945، دار الأمل الجزائر، د ط، 2007، ص120. نقلا عن الشهاب: م5، ج5، جوان 1929، ص15.

27 – ينظر كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ص193–194.

• مجموعة من اللغات الأفريقية المستخدمة في كل من مالي وغينيا و سيراليون.

28 – ينظر أحمد بن نعمان: فرنسا والأطروحة البربرية، ط2، دار الأمة، الجزائر، 1997 ص172.

29 – ينظر كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ص196–197.

30 – ينظر خولة الإبراهيمي: الجزائريون والمسألة اللغوية، ص20.

31 – ينظر عبد الفتاح عفيفي: علم الاجتماع اللغوي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ط 1995، ص174.

32 – عثمان سعدي: "اللغة العربية ولهجاتها المتفرعة عنها: مقارنة بين عامية الجزائر قبل الاستقلال وبعده"، الفصحى وعامياتها، أعمال الندوة الدولية، 2007، ص124.

33 – ينظر التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي: كوبر، ص198.

34 – ينظر عبد الفتاح عفيفي: علم الاجتماع اللغوي، ص129.

• جماعة النخبة هي جماعة رخوة الشخصية، لم يتبنوا أفكار الغرب، ووسائل عيشه، وطريقته في العمل وثقافته وتعليمه فقط، بل أرادوا أيضا أن يحولوا المجتمع الجزائري إلى مجتمع أوروبي. ينظر أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية 1900– 1930، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ط4، 1992، ج2، ص161.

35 - Louis-Jean Calvet : La Guerre des Langues et les politiques linguistiques :, Hachette Littératures, France, 1999, p84 .

36 – ينظر صالح بن القبي: "مآسي اللغة العربية طيلة الاحتلال الاستعماري ومآثرها"، اللغة العربية، عدد ممتاز، ص211.

37 – ينظر كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ص201–203.

38 – المرجع نفسه، ص204.

39 – أحمد الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962–1972، ترجمة حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت، ص16. نقلا عن جورج هاردي. «une conquête morale : l'enseignement en A.O.F »

40 – ينظر عبد الفتاح عفيفي: علم الاجتماع اللغوي، ص176.

41 – ينظر أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج2، ص63. (الهامش).

42 – ينظر كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ص211.

• الظهير البربري قانون استصدرته الإدارة الاستعمارية بالمغرب الأقصى، إلا أن الصدور الرسمي له كان في 16 مايو 1930، وهو يعطي صلاحيات قضائية عرفية وينشئ محاكم تستند في أحكامها إلى العادات والتقاليد البربرية لا إلى الشريعة الإسلامية. ينظر "وضعية العربية خلال العهد الاستعماري": محمد الميلي، اللغة العربية، عدد ممتاز، ص60. وينظر رابح لونيسي: دعاة البربرية في مواجهة السلطة، ص31.

43 – ينظر المرجع نفسه، ص143. وينظر صالح بلعيد: في الهوية الوطنية، دار الأمل الجزائر، د ط، 2007، ص105. قال صالح بلعيد: "حاول [الاستعمار] أن يتخذ الأمازيغية قميصا يثير به النعرات".

44 – ينظر كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ص212.

• يبدو أن الرمز سقط سهوا في المرجع الذي اعتمدناه، والأرجح أنه حرف R من كلمة Religieuse.

45 – ينظر عبد الرزاق بنور: الكتابة في المتوسط، د ط، منشورات زرياب، الطباعة العصرية الجزائر، 2004، ص119.

46 – ينظر كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ص216.